مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 12 عدد: 3، سبتمبر 2023
ص: 96 - 110 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الجذور التراثية لنظريات النقد الحداثي- السيميائية عند الجاحظ أنموذجا

The heritage roots of Modern criticism theories - semiotics for Al-Jahiz as a model

آمال بخوش[1] * / سامية آجقو[2]
Amal BEKHOUCHE[1] / Samia AJGOU[2]
مخبر وحدة البحث والتكوين في نظريات القراءة ومناهجها.
جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)
Mohamed Khider University, Biskra (Algeria)
amal.bekhouche@univ-biskra.dz[1] s.ajgou@univ-biskra.dz[2]

تاريخ الإرسال: 2023/02/04	تاريخ القبول: 2023/03/09	تاريخ النشر: 2023/09/02

ملخص البحث

جاءت هذه الدراسة بهدف قراءة التراث العربي و التأصيل لنظريات النقد الحداثي الموجودة في ثنايا كتبه وبالتحديد النظرية السيميائية والتي تعد من أبرز مقولات النقد الحداثي التي تهتم بدراسة العلامة اللغوية والغير اللغوية، كما أن لها أصول في الخارطة التراثية القديمة وكذا أرضيات اتكأت عليها واستمدت منها عطاءها النقدي.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة أن التراث هو الأصل ولابد من مناقشة مكنوناته من أجل التأسيس لنظرية عربية أصلها من التراث، ولأن كل نظرية نقدية لها مرجعيات معرفية كونتها لابد من العودة إليها، وأن السيميائية كنظرية نقدية حديثة لها جذور في التراث العربي عند علماء الأصول والتفسير وارتبطت بعلم الدلالة، كما أشار إليها الجاحظ من خلال كتابه "البيان والتبيين، وأن البيان عنده هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي وهو العلامة بالمفهوم المعاصر، كما ربطه باللفظ والإشارة والخط والعقد والنصبة بالإضافة إلى هذا نجد أن رصد ظواهر الحداثة في التراث العربي لا يمكن تحديدها إلا إذا كان هناك تصور صحيح للقديم لأن فهم الماضي يعين على فهم المستقبل.

الكلمات المفتاح : أصول؛ جذور؛ نظرية؛ علم الدلالة.

Abstract:

This study came with the aim of reading the Arab heritage and rooting for the theories of modernist criticism found in the folds of his books, specifically

* آمال بخوش: amal.bekhouche@univ-biskra.dz

the semiotic theory, which is one of the most prominent statements of modernist criticism that is concerned with the study of the linguistic and non-linguistic sign, as it has origins in the ancient heritage map as well as grounds upon which it relied. And derived from them its critical tender.

One of the most prominent findings of this study is that heritage is the origin and its components must be discussed in order to establish an Arab theory whose origin is in the heritage, and because every critical theory has cognitive references that it has formed and must be returned to, and that semiotics as a modern critical theory has roots in the Arab heritage According to the scholars of fundamentals and interpretation, it was associated with the science of semantics, as Al-Jahiz referred to it through his book "al-baya wa al-tabeen" " Eloquence and Demonstrations" and that the s Eloquence for him is the apparent indication of the hidden meaning, and it is the sign in the contemporary concept, as he linked it to pronunciation, sign, calligraphy, contract, and nusbah. In addition to this, we find that monitoring the phenomena of modernity in heritage Arab cannot be identified unless there is a correct perception of the old because understanding the past helps to understand the future

Key words: Origins; Roots; Theory ; Semantics.

1 - مقدمة:

إن الحديث عن التراث العربي وعن مكانته في ظل المعطيات المعاصرة أصبح أمرا ضروريا بل في غاية الأهمية لكونه يحمل كنوزا تكاد تضاهي ما أنتجه الفكر الغربي، وقد سبق التراث العربي إلى تناول عدة مفاهيم ونظريات نقدية أسست لفكر حداثي منها البنيوية، الأسلوبية، السيميائية، وما يهمنا في هذا المقام هو السيميائية والتي تهتم بدراسة العلامة مهما كان نوعها ومصدرها، ويعد الجاحظ من أبرز النقاد الذين سبقوا السيميائيين المعاصرين إلى تكوين رؤية سيميائية.

وجاءت هذه الدراسة بهدف التأصيل لنظريات النقد الحداثي في التراث العربي و بالتحديد النظرية السيميائية عند الجاحظ وذلك بإتباع المنهج التاريخي الوصفي لمعرفة جذور النظرية وفي خضم هذا الحديث يتبادر إلى أذهاننا طرح الإشكالية التالية: هل كان لنظريات النقد الحداثي جذور في التراث العربي؟ واذا كانت السيميائية من أبرز النظريات الحداثية التي نجد لها حضور في متون المؤلفات العربية القديمة خاصة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ فماهي اذن ملامح الرؤية السيميائية عند الجاحظ؟

2-التراث النقدي العربي ونظريات الحداثة :

اختلف النقاد والمفكرون حول تحديد مفهوم مصطلح التراث ومن أبرز مفاهيمه أن التراث هو المخزون الثقافي والمتوارث من قبل الأجداد والمشتمل على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية بما فيها من عادات وتقاليد سواء كانت هذه القيم مدونة في التراث أم مبثوثة بين سطورها أو متوارثة أو مكتسبة بمرور الزمن كما أن التراث هو روح الماضي وروح الحاضر وروح المستقبل بالنسبة للإنسان الذي يحيا وتموت شخصيته وهويته إذا ابتعد عنه سواء في أقواله وأفعاله.[1] فالتراث روح الأمة وأمة بلا تاريخ لا مستقبل لها.

ازدهر سؤال التراث في ظل تيار الحداثة هذا دفع النقاد العرب إلى إعادة مساءلة الموروث النقدي من أجل تحصين هوية ثقافية يهددها مخاطر الاندثار والزوال بفعل غزو ثقافي جارف.[2] يقول عبد المالك مرتاض: (الفكر النقدي العربي القديم حافل بالنظريات والإجراءات التطبيقية، من العقوق أن نضرب صفحا عن الكشف عما قد يكون فيه من أصول لنظريات نقدية غربية تبدو لنا في ثوب مبهرج بالحداثة فننبهر أمامها وهي في حقيقتها لا تعدم أصولها في تراثنا النقدي)[3] فمن المعروف أن لكل نظرية نقدية أصول معرفية كونتها لابد من العودة إليها.

والإصرار على أن ما تناوله التراث النقدي من القضايا والمفاهيم و النظريات النقدية يتطابق إن لم يكن يفوق ما تناوله النقد العربي الحديث لي أما الحداثة فهي من المصطلحات النقدية التي أثارت الجدل بين النقاد ،وهو مصطلح من الصعوبة تحديد ملامحه أو تعريفه تعريفا جامعا مانعا ومن بين مفاهيم الحداثة:"أنها ابتكار وخلق وهي ضد القديم لكنها لا تناقضه بل تستمد منه أصالتها، ولدراسة الحداثة لابد من العودة إلى الأصول القيمية للتراث"[4] لأن رصد ظواهر الحداثة يتطلب الفهم الصحيح للتراث النقدي.

ومن هنا كانت القراءة الحداثية للموروث النقدي والبلاغي تقف عند مفاهيم بعينها وصولا إلى بذورها الأولى، ولابد أن تكون هذه القراءة إيجابية منتجة لا تكتفي برصد مقولات الحداثة بل تعيد صياغة القديم في لغة جديدة[5] أي أن المادة قديمة فقط الاختلاف في المصطلحات وبالتالي كل نظرية معرفية لها سمات ومفاهيم خاصة بها تتماشى مع متطلبات العصر.

والإصرار على أن ما تناوله التراث النقدي من القضايا والمفاهيم و النظريات النقدية يتطابق إن لم يكن يفوق ما تناوله النقد العربي الحديث ليس كفيلا بتثمين التراث، وإنما الكشف عن خصوبته وثرائه وأنه إليه تعود الريادة في تأسيس المعالم الأولى للنظريات النقدية وأن ما تطرق إليه الدرس النقدي الحديث مجرد إضافات وأننا بحاجة إلى سحب الماضي إلى الحاضر ،فالتراث لا يسترجع ولكنه يستفتح :أي البحث فيه بأسئلة عميقة

وامتلاك النظرة العلمية التي تمكن من فهمه ثم تفسيره وتأويله[6].وهذا يتطلب امتلاك وعي نظري ومنهجي من خلال رؤية ابستيمولوجية موضوعية تسعى لإعادة قراءة التراث في سياقه التاريخي والحضاري وتوظيف واستثمار المعارف النظرية لإضاءة زواياه وكشف خباياه.

ولقد اتسم النقد في القرن الثالث هجري بالتجديد في رؤاه التقويمية والتي انجر عنها استحداث عدة جديدة من المصطلحات النقدية والمفاهيم النظرية نجدها مبثوثة في ثنايا كتب النقد العربي القديم :"الشعر والشعراء لإبن قتيبة"، "طبقات فحول الشعراء لإبن سلام الجمحي"، "البيان والتبيين "للجاحظ "وأسرار البلاغة "و"دلائل الإعجاز "لعبد القاهر الجرجاني وكل هذه الكتب بها أصداء لمفاهيم نقدية حداثية[7].حيث إذا استنطقنا بلغة الحداثة مدونة "طبقات فحول الشعراء "لإبن سلام الجمحي، وجدنا بها إرهاصات للمنهج التاريخي لاتكاء الناقد على عنصري الزمن والبيئة. فأصول المنهج عند ابن سلام الجمحي تنبع من تقسيمه للشعراء إلى طائفتان: جاهليون وإسلاميون ويحتكم هذا إلى عنصر الزمن ،أما المكان يظهر في حصره لشعراء القرى الذين لم ينفتحوا على سواها مثل: مكة والطائف والمدينة والبحرين ،إضافة إلى قرى هجرت وانفتحت على غيرها[8].

"وأما وسم ابن قتيبة لكتابه الشعر والشعراء بهذا الاسم فينبئ عن تتبع مقصود للشعر والشعراء وتبيان تطورهم بالوقوف على دقائق مسيرتهم الإبداعية"[9] وبالتالي يهتم بأحوال الشعراء وأزمانهم وقبائلهم وكل هذا يصب في المنهج التاريخي. كما أشار إبن قتيبة إلى المنهج النفسي في حديثه عن الطبع والإستعداد واختلافه من شاعر لآخر يقول:" والشعراء في الطبع مختلفون منهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ومنهم من تسهل عليه المراثي ويتعذر عليه الغزل.. "[10] وبالتالي التأكيد على دور العامل النفسي في العملية الإبداعية.

وفي الشعر والشعراء أصداء لقضية التلقي إذ يقربعض النقادبالتقاء النظرة النقدية لدى ابن قتيبة مع الناقد الغربي هانز روبرت ياوس في الكلام عن الحداثة، فكلاهما يخرج بمفهوم الحداثة عن مألوف عصره، حين يذهب ابن قتيبة إلى أن لكل عصر حداثته وأنه لابد من إستدعاء معطيات النص واحترام ذاتيته كنص بغض النظر عن قائله، أما ياوس فإنه يطالب متلقي النص باستدعاء خبراته الماضية للإفادة منهافي قراءة النص الحاضر بشكل جديد فظواهر الحداثة لها طابع مطلق لا يمكن أن نربطه بمكان أوزمان معين[11].

والجاحظ برزت عنده العديد من المفاهيم الحداثية في كتابيه البيان والتبيين والبخلاء، اللذين أسالا الكثير من الحبر في العديد من العلوم منها: التداولية والأسلوبية ولسانيات النص والتلقي ونظرية التوصيل التي عالجها في كتاب البيان والتبيين من خلال حديثه عن البلاغة وموافقة الكلام لمقتضى المتخاطبين[12].

هذه إطلالة سريعة على أهم المقولات الحداثية عند النقاد العرب القدامى وما يهمنا في هذا المقام هو الجاحظ أبرز علماء عصره وأشدهم حرصا ورغبة في إثراء المخزون التراثي العربي بآرائه وأفكاره، ومن المقولات الحداثية التي تناولها الجاحظ :مصطلح السيميائية.

3-الجاحظ (159-255):

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الشهير بالجاحظ، من أبرز نقاد عصره وأشدهم حرصا على حماية التراث.

"عاش الجاحظ في العصر العباسي الأول وهو عصر استوعب تراث العصر القديم فقد ازدادت جذور التواصل في هذا العصر بين هذا التراث وبين الثقافة الاسلامية عن طريق التزاوج بين العرب وغيرهم والسفر والترجمة"[13] أي أن البيئة التي نشأ بها الجاحظ كان لها كبير الأثر في كتاباته، و"لقد كان الجاحظ موسوعة معرفية متنقلة وتعتبر كتبه دائرة معارف تنهل منها الأجيال السابقة واللاحقة كتب في شتى المعارف والعلوم كتب في علم الكلام والأدب والسياسة والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناع والنساء والسلطان والجند والقضاة والولاة والمعلمين واللصوص والإمامة وغيرها من الموضوعات، وتعتبر كتب الجاحظ موسوعة معارف بحق فحوت علوم عصره وكانت صورة شاملة تترجم أحوال البيئة في مختلف نزاعاتها وتشعباتها وعاداتها وتقاليدها وأعراضها العباسية وبذلك ترك أثارا فكرية وأدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي وقد ضاعت هذه الكتب ولم يبق إلا القليل"[14] ونال الجاحظ اهتمام الباحثين لأنه يعد في نظرهم من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي ومن أبرز كتبه "البيان والتبيين" ، الحيوان" ، وبهذه الكتب نظريات أسست لفكر حداثي مثل المنهج السيميائي.

4-مفهوم السيميائية: لكل نظرية معرفية جذور لابد من العودة إليها لأن معرفة الماضي يعين على فهم المستقبل والنظرية السيميائية من بين أهم النظريات النقدية الحداثية التي لا يمكن الاستغناء عنها والتي لها حضور قوي في التراث العربي .

كما أنها منهج لتحليل النصوص الأدبية."و يصعب القول أن ثمة مناهج نقدية متكاملة حكمت النظرية الأدبية العربية لكن الأمر ليس خلوا من ملامح منهجية حظيت بفضل الريادة والسبق وشملت تلك الملامح وفيها ما يناظر معظم الأفرع المناهج النقدية الحديثة مثل التاريخي والاجتماعي والنفسي والجمالي فبعد أن ازدهرت الحياة النقدية أخذت تتكون آراء نقدية تنزع إل المنهجية وترسم أطرا عامة ذات فلسفة خاصة فالمتتبع لتاريخ النقد العربي يلحظ نماءا مطردا للعناصر التاريخية التي تعد بمثابة مهاد نما فيه الأدب ونضج فيه الأديب وهي البيئة والزمان ونلمس هذه العناصر عند بعض النقاد العرب مثل ابن سلام في كتابه "طبقات فحول الشعراء" والأمدي في "الموازنة "والجرجاني في" الوساطة[15] ،أي أن الممارسة التراثية أدركت قيمة المنهج في تنظيم العملية الإبداعية فهو قضية نالت اهتمام الباحثين على مر العصور، فالكثير من النظريات و المناهج الحداثية كالمنهج التاريخي والنفسي والاجتماعي والفني نجد له إشارات في متون المؤلفات النقدية العربية وتركز دراستنا على مؤلف البيان والتبيين للجاحظ واستنتاج الرؤية السيميائية عنده.

وإذا تأملنا هذا الكون بمختلف ظواهره وجدناه نظاما من العلامات فكل الوجود مبني على العلامة ومافيها من دلالة ونحن نستخدم العلامات اللغوية والتي يبدأ اكتسابها مع نشوء الحياة الواعية، ثم علامات الكتابة وعلامات التحية والتعرف على الآخر، ثم العلامات التي تنظم المرور والعلامات الخارجية التي تشير

إلى الظروف الاجتماعية، وعلامات العبادة والشعائر وعلامات الفن، فالعلامة تلعب دورا أساسيا هو التمثيل في مسرح الحياة الاجتماعية، فهي تحل محل شيء آخر وتستدعيه باعتبارها بديل عنه[16].والموروث الفكري العربي لا يعدو أن يكون في كنهه مخزونا علميا أو ثقافيا يظهر في شكل نظام من العلامات الدالة، وقد تبلور علم السيمياء على يد علماء الأصول والتفسير والمنطق واللغة والبلاغة [17].أي أن السيمياء ليست حديثة النشأة بل موجودة منذ وجود الإنسان .

4-1لغة:

(سام الذي هو مقلوب وسم على وزن عفل وأصلها وسمة ويقولون سيمى وسيماء وسيماء ويقولون سوم إذا جعل سمة وسوم فرسه أي جعل عليه السمة وقيل الخيل المسومة هي التي عليها السيما والسومة وهي العلامة).[18] .أي العلامة هي موضوع السيمياء.

4-2 اصطلاحا:

علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وهذا يعني أن النظام الكوني بما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة، وهكذا فإن السيميولوجيا هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون[19] ، (وموضوع السيميائيات هو العلامة سواء أكانت لغوية أو غير لغوية من حيث طبيعتها والكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها، وقد لاحظ جان مارتيني أن مختلف التعاريف حول السيميائيات تتضمن مصطلح علامة وهذا مؤشر واضح على أن موضوع السيميائيات هو العلامة ويعرف دي سوسير العلامة أنها كيان نفسي ذو وجهين يشبهان وجهي الورقة ومرتبطان ارتباطا وثيقا ويتطلب أحدهما الأخر مع إقصاء المرجع، وهذا لا يعني أن دي سوسير قد أهمله فقد كان اهتمامه منصبا على دراسة شكل المادة وليس المادة في ذاتها، فكان يهدف إلى دراسة اللسان البشري عامة والمرجع في نظره منطبع في الذهن في شكل تصور والعلاقة الموجودة بين الدال والمدلول اعتباطية، أما بالنسبة لبيرس فمن الصعب أن نفهم دراسته للعلامة لأنها وردت في سياق منطقي دقيق يعتمد فيه على كثرة التعريفات والتقسيمات فهو لم يكن بوسعه أن يدرس أي شيء مثل الرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا والجاذبية والاقتصاد وتاريخ العلوم إلا بوصفه دراسة سيميوطيقية، فالعلامة عنده تشمل مختلف الظواهر والعوالم كيفما كانت طبيعتها فالعلامة البيرسية قد تكون لغوية أو غير لغوية وهي ثلاثة أنواع : القرينة ويعرفها بيرس بأنها علامة تحيل إلى الشيء الذي يشير إليه لوقوع هذا الشيء عليها في الواقع والعلاقة هنا سببية أي ليست اعتباطية فالدخان يعني النار. والأيقونة ويحكمها مبدأ التشابه بين الدال والمدلول، ومن أمثلة بيرس عليها الصورة الفوتوغرافية. والرمز علاقة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل هذه الأصناف الثلاثة للعلامة عند بيرس).[20] أي أن العلامة هي المحور الأساسي في النظرية السيميائية.

5- ملامح الرؤية السيميائية عند الجاحظ:

لم يكن علم السيمياء وليد العصر الحديث بل هو علم قديم النشأة فقد اهتدى إليه القدماء منذ أكثر من ألفي سنة فقد أكد أفلاطون أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة أداة للتواصل ولهذا كان اللفظ يعبر عن

حقيقة الشيء كما أشار إلى ما تمتاز به الأصوات من خواص تعبيرية تعبر عن ظواهر عديدة تشترك فيها لغات البشر باعتبارها ظاهرة إنسانية[21] .أي أن السيميائية كممارسة وكمادة كانت في العصر القديم ولكن كنظرية لها قواعد وأسس لم تظهر إلا مؤخرا في العصر الحديث.

وسبق الجاحظ (159-255) السيميائيين المعاصرين إلى تطبيق رؤية سيميائية واضحة المعالم تجلت ملامحها في:

1-5 تعريفه للبيان:

(اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى أي كل ما أوصل إلى السامع المعنى المراد ويستوي في ذلك كل أجناس الأدلة فبأي شيء بلغت الأفهام ووضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع).[22] أي أن البيان يحمل معاني الوضوح وتبليغ المعنى. وقد عرفت أمينة رشيد العلامة(وهكذا يعترف الجميع بمفهوم العلامة باعتبارها شيئا ماديا يظهر شيئا آخر ذهنيا).[23] أي إحلال شيء محل شيء ليدل عليه. أما الجاحظ يرى أن العلامة إشارة واضحة تمكن من معرفة أمر خفي[24] .

(وهكذا يؤسس الجاحظ لرؤية سيميائية واضحة المعالم بدءا من العلامة أي الدلالة عنده وانتهاء بالأنظمة السيميائية المركبة على تنوعها فقد كرر الحديث عنها غير مرة في كتبه)[25] وبالتالي نجد أن للجاحظ جهود في التهيد للنظرية السيميائية قبل السيميائيين المعاصرين يقول في كتابه" البيان والتبيين" (وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة).[26] وبالتالي الجاحظ جعل البيان في أصناف عديدة وفصل الجاحظ الحديث فيها في كتاب "الحيوان" مبرزا أهم الحواس الإنسانية التي تخص كل صنف من تلك الدلالات يقول:(ثم قسم الأقسام ورتب المحسوسات وحصل الموجودات فجعل اللفظ للسامع وجعل الإشارة للناظر وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه وسببا موصولا بينه وبين أعوانه).[27] وبالتالي جعل البيان في عدة أصناف وجعل لكل صنف الحواس الخاصة به .

2-5 تعداده العلامات والإشارات:

أولا- اللفظ:

من وسائل البيان عند الجاحظ اللغة المسموعة والمنطوقة وبعبارة السيميائيين اللغة وهي أهم النظم السيميائية لدى القدماء والمعاصرين بل يعد النظام اللغوي النموذج الأمثل لسائر أنماط الأنظمة السيميائية كما تمثل اللغة أهم وسائل التعبير[28].ويؤكد الجاحظ على أهمية اللغة بين الأنظمة السيميائية يقول (قد قلنا في الخطوط ومرافقها وقلنا في العقد ولم تكلفوه وفي الإشارة ولم اجتلبوها ولم شبهوا جميع ذلك ببيان اللسان حتى سموه بالبيان ولم قالوا القلم أحد اللسانيين والعين أنم من اللسان وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه ولجميع

هذه الأشكال أصلا وصار هو المشتق منه والمحمول عليه وكيف جعلنا الأجسام الصامتة نطقا والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بيانا).[29] أي أن وسائل البيان المسموعة والمنطوقة لها أهمية بين الأنظمة السيميائية.

وترتكز رؤية الجاحظ السيميائية على ثلاث نقاط: التركيز على وحدة وسائل البيان أي وحدة الأنظمة السيميائية، إظهار مزايا كل نظام من هذه الأنظمة على حدة وتحديد الفروق بينها ويؤكد الجاحظ على وحدة تلك الأنظمة السيميائية يقول(وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف).[30] أي علاقة تكاملية بين وسائل البيان من لفظ وإشارة ونصبة وعقد والخط.

وبيان اللسان هو الذي جعل أصلا لسائر وسائل البيان الأخرى من خط وإشارة وعقد وما ذكره الجاحظ أنفا يتقاطع مع سوسير الذي جعل اللغة المثل الذي تحتذيه سائر الأنظمة[31] وبالتالي هناك تشابه بين أفكار الجاحظ وأفكار فرديناند سوسير حيث يقول:(إن الإشارات الاعتباطية أفضل من غيرها في التعبير عن الهدف الأسمى لعملية التعبير بالإشارات وهذا يفسر: لماذا تعد اللغة وهي أكثر نظم التعبير تعقيدا خير ممثل لنظام الإشارات وبذلك يصبح علم اللغة النمط الأساسي لجميع فروع علم الإشارات مع أن اللغة ليست سوى نظام واحد من أنظمة الإشارات).[32] أي أن للغة دور بارز بين الأنظمة السيميائية ويضيف بنفيست أن اللغة نظام سيميائي تعين على معرفة ماهية الوظيفة الإشارية[33] وقد أشار أحد الباحثين المعاصرين إلى أسبقية الجاحظ في هذا الميدان ويقول: (وإذا كانت هذه الأهمية التي تتميز بها اللغة هي التي جعلت علماء السيمياء المعاصرين يولونها أكبر جهدهم وعنايتهم ويفهمون مجالات الأنظمة الإشارية الأخرى ويدرسونها في ضوء ما يتوصل إليه علماء اللغة من قواعد وقوانين فإن الجاحظ أدرك ذلك بوعي علمي دقيق فخص اللغة بما لم يخص به غيرها من وسائل البيان).[34] أي أن الجاحظ كان سباقا في الإشارة إلى أهمية اللغة كنظام سيميائي قبل السيميائيين المعاصرين.

ثانيا-الإشارة:

تناول الجاحظ نوعين من الإشارات : الحسية والعرفانية الصوفية واهتم بالإشارات الحسية أي الحركات الجسدية وقسمها إلى قسمين: ما يأتي مصاحبا للفظ ومعزز لقوة دلالته وما ينوب عن اللفظ يقول: أن الإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه وما أكثر ما ينوب عن اللفظ وتغني عن الخط واستدل بقول الشاعر[35]:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها* من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة *حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وعقب يقول: (هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت)[36] أي أن الإشارة يمكن أن تكون بديلا عن اللغة.

(فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها : رفع الحاجب وكسر الأجفان ولي الشفه وتحريك الأعناق وقبض جلدة الوجه وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع حبل تجاه الناظر ثم ينقطع عملها ويدرس أثرها ويموت ذكرها)[37]

وحديث الجاحظ عن الإشارة ينم عن وعي عميق بهذا النظام الإشاري السيميائي ففي كتاب الحيوان تحدث عن لغة الصم والبكم.[38] .

ثالثا- العقد:

(وهو الحساب دون اللفظ والخط.[39] وبالتالي يستعمل اللمس والرؤية ويقول(وقد اضطربوا في الحكم بين العقد والإشارة وقال فجعل الله اللفظ للسامع وجعل الإشارة للناظر وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد).[40] أي تقارب المفهومين والإشارة تكون بالعين والعقد بالرؤية واللمس معا[41] وعدها أحد الباحثين المعاصرين طريقة إشارية ففي المصادر العربية القديمة نجد هذه الطريقة الإشارية في الحساب كما نجد من يصف لنا هذه الإشارات الجسمية بحركات أصابع اليد[42] .

وكان الجاحظ يدرك أهمية الحساب في تنظيم حياة البشر يقول:(ونفع الحساب معلوم والخلة في موضع فقده معروفة)[43]أي الحساب عملية ضرورية في حياة البشر ويضيف أن الحساب يشمل على منافع جليلة ولولا إدراك البشر لمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا معنى الحساب في الآخرة[44]ويقول:(وفي عدم التلفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم وفقدان جمهور المنافع). أي أن الإشارة من أهم وسائل البيان[45] .

رابعا-الخط(الكتابة):

لا يقتصر الخط عنده على الكتابة بل يشمل كلما يتلقى بحاسة البصر أو كل علامة تقوم على شكل مصور يدرك بالعين على سطح مكان ما.[46] ويفرق الجاحظ بين لغة الكتابة واللغة المنطوقة.[47](ولا بين الحروف المجموعة والمصورة من الصوت المقطع في الهواء ومن الحروف المجموعة المصورة من السواد في القرطاس فرق واللسان يصنع في جوبة الفم وفي خارجه وفي لهاته وباطن أسنانه مثلما يصنع القلم في المداد ... وكلها صور وعلامات وخلق مواثل ودلالات فيعرف منها ما كان في تلك الصورة لكثرة ترددها على الأسماع ويعرف منها ما كان مصورا من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار كما استدلوا بالضحك على السرور وبالبكاء على الألم وعلى ذلك عرفوا معاني الصوت وضروب صور الإشارات وصور جميع الهيئات).[48] والخط واللغة كلاهما من الأنظمة السيميائية قد تنوب عن بعضها في هذا النص يعنى الجاحظ بثلاث قضايا: النظرة البنيوية العميقة لكل من لغة الصوت ولغة الكتابة وصور الإشارات ليصل إلى أسس النظام المشترك الذي تقوم عليه كل لغة من هذه اللغات.[49] فهو يشير إلى اللسان والإشارة والخط والتصوير بأنواعه وهذا يذكرنا بتعريف سوسير للغة سيميائيا حيث يقول:(فاللغة نظام من الإشارات التي تعبر عن الأفكار ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة أو الألفباء المستخدمة عند فاقدي السمع والنطق أو الطقوس الرمزية أو الصيغ المهذبة أو العلامات العسكرية أو غيرها من الأنظمة)[50].

رغم وحدة الأنظمة السيميائية إلا أن هناك فروقات بينها فالوظائف التي تؤديها لغة الكتابة تختلف عن الوظائف التي تؤديها اللغة المسموعة المنطوقة رغم أن كليهما من وسائل البيان، كما نجد أن اللغة الصوتية محددة بحدود الزمان والمكان بينما تتجاوز الكتابة حدود الزمان والمكان ويرى الجاحظ أن اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب.[51] وإدراك الجاحظ لأسس الأنظمة السيميائية و بالفروق التي تميز كل نظام جعل بعض الباحثين المعاصرين يقرون بأن الجاحظ مؤسس للسيميائية عموما سيميائية الخط خصوصا[52] .يقول بلمليح (يجب التذكير في هذا المجال بأن الجاحظ يعد بحق مؤسس نظرية سيميائية واضحة المعالم اهتمت بالخط فأدركت بعض أسس نظامه ومبادئه وافتقرت إلى أسس ومبادئ أخرى وتحدثت عن بعض قوانينه لكنها لم تصل بهذه القوانين إلى حدها العلمي المتعلق بالكتابة عند السيميائيين المعاصرين)[53] أي أن الجاحظ له كبير الفضل فيوضع المبادئ الأولى للنظرية السيميائية وأغلب الظن أن الجاحظ كان يرسي الأسس والقوانين السيميائية التي وضعها الجاحظ تتقاطع وما وضعه السيميائيون المعاصرون.

ويرى بنفيست أن كل نظام سيميائي يعتمد على إشارات يستوجب بالضرورة أن يتضمن :مجموعة محددة من العلامات وقواعد تنظيم هذه الإشارات واستقلال هذه الإشارات عن طبيعة الخطابات التي يسمح النظام بإنتاجها وعن عددها والنصبة التي حددها الجاحظ تدخل في إطار هذه القواعد التي قررها بنفيست.[54]

خامسا-النصبة:

عرف الجاحظ النصبة بقوله:(هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات... وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق فالصامت ناطق من جهة الدلالة والعجماء معربة من جهة البرهان ولذلك قال الأول : سل الأرض فقل: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا).[55]
أي أن النصبة أداة تواصل تكون بغير اللفظ والمشيرة باليد ومن غرائب الأمور أن يجد الباحث تشابها بين تعريف الجاحظ للنصبة وبين الأيقونة عند بيرس حيث يقولإن الأيقونة علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل صفات تمتلكها خاصة بها وحدها فقد يكون أي شيء أيقونة لأي شيء آخر سواء أكان هذا الشيء صفة أو كائنا فردا أو قانونا بمجرد أن تشبه الأيقونة هذا الشيء وتستخدم علامة له)[56] وقد يحتاج هذا الحكم إلى إنعام النظر ودراسة مستقيمة للمقارنة بين العلامتين الايقون أو الأيقونة عند بيرس والنصبة عند الجاحظ وربما يحتاج ذلك إلى العودة إلى الفكر الأرسطي أيضا لأنه المصدر المشترك لكليهما.[57] ولا نزعم تساوي الرؤيتين وإن كانت النصبة تشير إلى نوع من أنواع الأيقونات ولكنها في أغلب الظن أشمل من ذلك وهذا الذي جعل النصبة عنده لا تقصر عن تلك الدلالات التي أشار إليها أنفا (من لفظ وخط وإشارة وعقد)[58] فهذه الدلالة أو العلامة لها صورتها شأنها شأن هذه الدلالات والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات)[59] وهي أيضا نظام من الأنظمة السيميائية الذي يقوم على أسس ينبغي دراستها وفهم دلالاتها

والاهتمام بها لا يقل عن الاهتمام بتلك الأنظمة الأخرى ولذلك يعطيها هذه الأهمية التي تستحقها فعلا في عالم البيان[60].

3-5 تفصيله الإشارات الناقلة للمعاني وشرحه لكيفيتها وتطورها:

تحديده المواقف الاجتماعية التي تستدعي التعبير بالإشارة كالرغبة في ستر بعض الأمور وإخفائها عن الحاضرين.[61]

هذه خلاصة لأهم ملامح الرؤية السيميائية عند الجاحظ والتي تمثلت في تعريفه للبيان وتعداده للعلامات والإشارات وتفصيله للإشارات الناقلة للمعاني وشرحه لكيفيتها وتطورها، وهذا يعني أن معظم نظريات النقد الحداثي لها أصول في التراث العربي لابد من العودة إليها لأن التراث هو الأصل وهو أداة لفهم المستقبل.

6-خاتمة:

انبثقت بواكير الحداثة على يد نقاد كان لهم قصب السبق والريادة في بعض النظريات النقدية التي أسست لفكر حداثي من بينهم أبو عمرو بن محبوب الملقب الجاحظ الذي سبق السيميائيين المعاصرين في تكوين رؤية سيميائية واضحة المعالم من خلال كتابيه "البيان والتبيين" والحيوان" من بين النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يلي:

-التراث جزء مهم من تاريخنا لابد من الحفاظ عليه.

-قراءة التراث لا تقتصر على استحضار الموروث والتعرف على أعلامه ونصوصه بل تتعدى إلى استقراء المدونة النقدية بحثا عما يكمن في نصوصها من تصورات ومفاهيم يمكن أن تضاهي ما توصل إليه الغربيون.

- كل نظرية نقدية لها أصول معرفية كونتها لابد من العودة إليها.

- رصد ظواهر الحداثة لا يمكن تحديدها إلا إذا كان هناك تصور صحيح للقديم وامتلاك وعي منهجي دقيق.

- السيميائية هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلاقتها في هذا الكون.

- البيان عند الجاحظ هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي وهو العلامة بالمفهوم المعاصر.

- تجلت ملامح السيميائية عند الجاحظ في تعريفه للبيان، تعداده للإشارات والعلامات، تفصيله الإشارات الناقلة للمعاني وشرحه لكيفيتها وتطورها.

- السيميائية تهتم بدراسة العلامة اللغوية وغير اللغوية.

- ربط البيان بعناصر هي اللفظ والإشارة والخط والعقد والنصبة.

- السيميائية مصطلح معروف عند العرب وهي موجودة في علوم المناظرة والأصول والتفسير والنقد وارتبطت بعلم الدلالة.

هوامش:

1- ينظر: سيد علي إسماعيل، أثر التراث في المسرح المعاصر، د.ط، دار قباء للطباعة، دار المرجان، القاهرة، 2007، ص: 40.

2- ينظر: أمينة رشيد، نماذج من القراءة الحداثية للموروث بين هاجس التأصيل ورهان التحديث، مجلة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب، ابن خلدون تيارت، الجزائر، مجلد 15، العدد2، 5ديسمبر 2018، ص: 424

3- عبد المالك، مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط1، 2007، ص: 188-

4- منير الحافظ، التراث في العقل الحداثي بحوث في فلسفة القيم الجمالية، دمشق، دار الفرقد، 2001، ص: 12

5- عبد المطلب محمد، قضايا الحداثة عند عبد القاهر، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ص: 2

6- ينظر: سعيد يقطين، الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2014، ص: 288

7- ينظر: أسيا دربالي، ملامح الحداثة في عيار الشعر لابن طباطبا(ماجيستير) كلية الآداب واللغات جامعة باتنة، 2013، 2014، ص: 21

8- ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، القاهرة، 1974، ص: 23، 24

9- عاصم محمد أمين حسن بن عامر، ملامح حداثية في التراث النقدي (دكتوراه)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني، 2004، ص: 112

10- نفسه، ص: 114

11- عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد متابعو لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، بوزريعة، الجزائر، 2002، ص: 19

12- ينظر: نفسه، ص: 20

13- عامر شتوح، ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين(ماجيستير) قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 29 أفريل، 2009، ص: 21

14- المرجع نفسه، ص: 25، 26.

15- عاصم محمد أمين حسن بن عامر، ملامح حداثية في التراث النقدي، ص: 112

16- ينظر: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا (مقال) سيميولوجيا اللغة إميل بنفيست، تر: سيزا قاسم، ط1، الدار البيضاء، 1986، ج1، ص: 16

17- ينظر: بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي، مجلة التراث العربي، العدد 91، 23 سبتمبر 2003، ص: 71

18- القرومي المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج2، ص: 290

19- ينظر: بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي، ص: 70

20- عامر بن شتوح، ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص: 12-13

21- ينظر: بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي، ص: 68

22- زغدودة ذياب، جذور علم السيمياء في المجتمع العربي القديم، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر، ص: 362، 363.

23- أمينة رشيد، السيميوطيقا مفاهيم وأبعاد، مجلة فصول في النقد، القاهرة، المجلد الأول، العدد 3، ابريل 1981، ص: 47

24- ينظر: امبرتوايكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنانط1، 2005، ص: 46.
25- عدنان رسلان، د. نينيت خضور، الرؤية السيميائية عن الجاحظ، التراث العربي، العدد 102، شتاء 2019، ص58.
26- عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 76.
27- عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 45، 46.
28- ينظر: عدنان رسلان، د.نينيت خضور، الرؤية السيميائية عند الجاحظ، ص: 58، 59.
29- عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 5، 6.
30- ينظر: عدنان رسلان، د.نينيت خضور، الرؤية السيميائية عند الجاحظ، ص: 59.
31- ينظر: نفسه ص: 5.
32- ينظر: سوسور فرديناند، علم اللغة العام، تر يوئيل يوسف عزيز، بيت الموصل، جامعة الموصل، العراق، 1988ص: 87، 36.
33- نفسه، ص: 87.
34- ينظر: إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: 135.
35- نفسه، ص: 78.
36- ينظر: نفسه، ص: 79.
37- عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 48.
38- عدنان رسلان، د.نينيت خضور، الرؤية السيميائية عند الجاحظ، ص: 62، 63.
39- ينظر: -عدنان رسلان، د. نينيت خضور، الرؤية السيميائية عند الجاحظ، ص: 63.
40- عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 280.
41- نفسه، ص: 49.
42- ينظر: عدنان رسلان، د.نينيت خضور، الرؤية السيميائية عند الجاحظ، ص: 64.
43- ينظر: حسام الدين كريم زكي، الإشارات الجسمية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1985، ص: 81.
44- عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 46.
45- ينظر: عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 80.
46- ينظر: عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 80.
47- ينظر: عمرو بن محبوب الجاحظ، االحيوان، ص: 80.
48- ينظر: عدنان، رسلان، د.نينيت خضور، الرؤية السيميائية عند الجاحظ، ص: 65.
49- ينظر: عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 70.
50- ينظر: -نفسه، ص: 70.
51- ينظر: عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 70.
52- ينظر: عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 80.
53- ينظر: كمال أبو ديب، السيميائية أحدث العلوم الإنسانية، مجلة العربي، ص: 62.

54- إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: 133.
55- ينظر: نفسه، ص: 136.
56- عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 81، 82.
57- عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ص: 31، 32.
58- ينظر: نفسه، ص: 70.
59- عمرو بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 76، والحيوان، ص: 33.
60- نفسه، ص: 76.
61- ينظر: زغدودة ذياب، جذور علم السيمياء في المجتمع العربي القديم، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الوادي (الجزائر)، ص: 362، 363

قائمة المصادر والمراجع:

1- إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1404/1984.
2- امبرتو ايكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
3- أمينة رشيد، نماذج من القراءة الحداثية للموروث بين هاجس التأصيل ورهان التحديث، مجلة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب ابن خلدون، تيارت، الجزائر، مجلد 15، العدد 2، 5ديسمبر 2018.
4- أمينة رشيد، السيميوطيقا مفاهيم وأبعاد، مجلة فصول في النقد، القاهرة، المجلد 1، العدد 3، ابريل 1981.
5- بلقاسم دفة، علم السيمياء في التراث العربي، مجلة التراث العربي، العدد 91، 23 سبتمبر 2003.
6- حسام الدين، كريم زكي، الإشارات الجسمية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1985.
7- دي سوسور فرديناند، علم اللغة العام، تر يوئيل يوسف عزيز، بيت الموصل، جامعة الموصل، العراق، 1988.
8- زغدودة ذياب، جذور السيمياء في المجتمع العربي القديم، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر.
9- سيد علي إسماعيل، أثر التراث في المسرح المعاصر، دار قباء للطباعة، دار المرجان، د.ط، القاهرة، 2007.
10- سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا (مقال) سيميولوجيا اللغة لإميل بنفيست، ترسيزا قاسم، ط1، الدار البيضاء، 1986، ج1.
11- عامر شتوح، ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين (ماجيستير)، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 29 أفريل2009.
12- عبد المالك، مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط1، 2007.
13- عدنان رسلان، د. نينيت خضور، الرؤية السيميائية عن الجاحظ، التراث العربي، العدد 102، شتاء 2019.
14- عمرو بن حبوب الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1410/1990 ج1.
15- عمرو بن محبوب الجاحظ، الحيوان، ت عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1969، 1388، ج5.
16- القرومي المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج2.

17-كمال أبو ديب، السيميائية أحدث العلوم الإنسانية، مجلة العربي.
18-منير الحافظ، التراث في العقل الحداثي بحوث في فلسفة القيم الجمالية، دمشق، دار الفرقد، 2001.
19-عبد المطلب محمد، قضايا الحداثة عند عبد القاهر، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة
20-سعيد يقطين، الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2014
21-أسيا دربالي، ملامح الحداثة في عيار الشعر لابن طباطبا(ماجيستير) كلية الآداب واللغات جامعة باتنة، 2013، 2014،
22-ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، القاهرة، 1974
23-عاصم محمد أمين حسن بن عامر، ملامح حداثية في التراث النقدي (دكتوراه)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني، 2004، ص: 112
24-عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد متابعو لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، بوزريعة، الجزائر، 2002